"أوراق ميشال شيحا: صفحات من تاريخ لبنان" معرض يفتتح اليوم في سرسق

سؤال في الضمير يتركه مفكّر "لبنان في شخصيته وحضوره"

اليوم اكثر من أي زمن آخر، ميشال شيحا سؤال في الضمير.

"بلد صغير حقاً، جد صغير، ربما أمة صغيرة لكنه ليس قطعاً شعباً صغيراً" – يقول.

وعنده مثل انحياز متطرف الى اختصار الوطن بالانسان. ولم يؤله اللبناني وان احاط لبنان بطقوسية فكرية تضعه فوق الجدال. ويرى الى قدم لبنان في التاريخ الى اكثر من خمسة آلاف سنة، ما يخرجه نهائياً من القال والقيل الداثرين يوم كان ميشال شيحا يكتب وسط اجواء حروب كلامية حول اوطان مقدّسة لهؤلاء ومصنّعة لآخرين.

ميشال شيحا، عنوان أم شعار أم عصب أمة؟

* * *

متحف سرسق يجيب، بدءاً من هذا المساء والى ٤ حزيران، عن السؤال احتفالياً (سينوغرافيا الدحداح وخوري وغندور) على طبقتين من الوثائق والشهادات والمعالم، وبالصورة والنص، والذاكرة والوقائع، والملامح والمسوّدات، والى ذلك لا يكتفي بما يقدمه موحياً بما لا يقال او بما يصعب قوله، ان الرجل الذي تكلم عن الجميع يوم كان الصمت فضيلة والتستر ذكاء وسياسة، انه فوق الشبهات لكونه تجرأ على وضع نفسه في خانة الرجال تحت النصال، ولذا كان في متناول الألسنة سواء نطقت اعجاباً او غضبت هجاءً.

وتستفيض مؤسسة ميشال شيحا، ركيزة المعرض في متحف سرسق، (أي انها في معنى آخر منظمة هذا المعرض) في ابراز الاطر الفصلية للازمنة الصعبة التي تصنع الاوطان والرجال، ورأت المبادرات المتعددة المضمون والرقعة والفاعلية التي وضعت المالي الكبير والمثقف الخصب والسياسي العليم في واجهة الاحداث التي بنت بتراكمها لبنان الاستقلال ولبنان الجمهورية البرلمانية الليبرالية.

غلاف كتاب: ميشال شيحا: ١٨٩١ – ١٩٥٤.

وفي تعريف للمؤسسة بمحتويات المعرض في سرسق كلام عن النيات، مباشر وصريح: "وليس معرض شيحا في متحف سرسق تكريماً لميشال شيحا بعد مرور زهاء نصف قرن على وفاته، بقدر ما هو تكريم لوطن من خلال رجل قام بدور اساسي في بناء لبنان ١٩٢٠ ولبنان ١٩٤٣ – وما الى هذين التاريخين وما عنهما – لبنان الأقليات الاكثرية المتآخية التي تشاركت في بناء وطن للجميع".

ومواد المعرض في كتاب انيق وثري وثمين، وملوّن بالأناقة المثقفة التي تضع كل صفحة من صفحاتها في خدمة معلومة بارزة ذكية تصوّر الى ابعد فاعمق الوجه المغفل لرجل بدا طويلاً مثل علامة استفهام محاصرة بالسرية. وتراقق المعرض، انما على نحو فاعل، محتويات كتاب "ميشال شيحا: ١٨٩١ – ١٩٥٤" لتوضّح استناداً الى وثائق اصلية الدور الحقيقي والواقعي والذي لم يغب مرة في الايام المستحيلة التي تصنع حاضر وطن ومستقبله.

* * *

بين معرض وكتاب تهدف "مؤسسة ميشال شيحا" الى تأكيد الملامح الفكرية لسياسي – وللكلمة هنا محتوى ثقافي جدلي – من مرحلة مهددة بكل من فيها وما فيها بالنسيان، وليس فقط لتراكم الركام الفليظ في حروب انتحارية، وانما لغياب ادوات تصفي الذاكرة وتجدّد المعرفة، بل خاصة لسقوط عادة القراءة التي صنعت من بيروت ذات يوم "مقرأة الشرق والغرب"، فيما تحجر كتبها حالياً تحت غبار المكتبات. وفي بعض كلام المؤسسة الوارد في الملف الصحافي: "واذا كان شيحا قد تكرر مراراً ذكره... لا بد من الاعتراف بأن شيحا لم يقرأ بقدر ما ذكر".

وعنوان المعرض: "اوراق ميشال شيحا" يترك حرية قصوى للزائر في برمجة زيارته لمتحف سرسق كمدخل بصري الى صورة وطن تلملم ملامحها من صفحات تؤرخ لأيام تومي رغبة كأنها عامة لمحو معظم محتوياتها. والصورة مطبوعة في جدية نادرة في كتاب المعرض الذي يطل لدى تصفحه سريعاً كمكان فعلي لذاكرة مرحلة عريضة تنتعش، لثراء احداثها، وللقامة النظيفة لصاني تلك الاحداث التي وضحت وسط ضجيج منطقة تتفجر الى كل جهاتها بعد سقوط السلطنة وبابها العالي، عرفوا كيف الوصول الى وطن يطل اليوم كان المسؤولين عنه يفخخونه ليطير.

* * *

ولذلك ربما، معرض "اوراق ميشال شيحا، صفحات من تاريخ لبنان".

وجيد وخصب الا يضيع اللبنانيون بعض ذاكرتهم.

فالأوطان رجال وذاكرة.

نزيه خاطر

(*) يفتتح المعرض مساء اليوم الاربعاء الساعة السادسة، في متحف سرسق بدعوة من "مؤسسة ميشال شيحا". ويستمر من ٩ ايار الى ٤ حزيران ٢٠٠١.

شهادات وأقوال في شيحا

عام ١٩٥٦ خصّت مجلة "الحكمة" المفكر اللبناني ميشال شيحا بعدد خاص (ايار – حزيران) شارك فيه اكثر من علم فكري وادبي وصحافي وسياسي، وكان الاديب فؤاد كنعان برأس تحرير المجلة في تلك الفترة، وهو للمناسبة ناقل محاضرات شيحا الى العربية تحت عنوان "لبنان في شخصيته وحضوره" الكتاب الذي صدر في طبعته الاولى عام ١٩٦٢ في منشورات "الندوة اللبنانية" واعادت "دار النهار" اصداره في طبعة ثانية عام ١٩٩٨ بالاشتراك مع "مؤسسة شيحا"، وهنا شهادات متفرقة في ميشال شيحا اخترنا مقاطع لكتّابها من عدد "الحكمة" الخاص.

كان مدى نظره يتجاوز حدود لبنان فيشمل اول ما يشمل الشرق الادنى الذي نحن جزء منه، وقد انصرف بلا مهادنة الى تحديده واعادة هذا التحديد مرات، ليجعل منه كلاً خاضعاً لحاجات مشتركة. وقد بذل هذا "المتوسطي" جهداً كثيراً ليجذب دول الجامعة العربية الى المتوسط لأنه مهد الحضارة، ولأنه في الوقت نفسه يضمن مصير هذه البلدان وعظمتها. وقد حاول ان يفهمها الفوارق التاريخية والجغرافية والعرقية والاخلاقية التي تفصل الشرق الادنى عن الشرق المتوسط والشرق الاقصى، لكن تعبه ذهب سدى، والدليل على ذلك، الهوّاتر الاسيوي – الافريقي الذي عقد في بندونغ، ثم حذر البلدان العربية من كل انحراف نحو الشرق ونحو مبادئه، وبالاختصار انه كان على يقين من ان مصير البلدان العربية لا يكون الا على شواطئ المتوسط، ولا ينمو نمواً طبيعياً الا بالاتجاه نحو الغرب. كل هذا كان يعبر عنه بلغة مباشرة واضحة نقية كألماء المتفجّر، تنشرح لها صدور اصدقائه العديدين وتقوى من تقتهم (...).

ألفرد نقاش

لبنان مدين لميشال شيحا بالكثير. مدين له اولاً بتعالمه بشأن لبنان – لبنان البر، المستقل، المنفتح على النور والحق، الراسخ في كيانه، المتأكد من ضرورته ومن رسالته، الساعي حثيثاً الى تعاون اهله جميعاً في ما يؤول الى خيره والى خير اخوانه العرب. ولا اظن احداً في هذا الجيل تجسدت فيه فكرة لبنان هذه كما تجسدت في ميشال شيحا. واذ كان يحدثني كنت اشعر دائماً ان محدثي ليس هذا الانسان الجزئي الفرد الضعيف، بل لبنان ذاته، في جوهره وفي ازلية كيانه. كان صوت ميشال شيحا صوت لبنان كما لم يكنه اي انسان آخر (...).

لبنان والعرب جميعاً مدينون له بتصويره الخطر الصهيوني على حقيقته. لا اعرف كاتباً عربياً حلّل هذا الخطر وظهّره في تضاعيفه الاخيرة كما فعل ميشال شيحا (...).

شارل مالك

استقرأ ميشال شيحا تاريخ لبنان ليقول لنا، قبل استقلالنا، ان الشعب الذي يعيش على طريق أمم وعوالم، كما نعيش، لا يكون مستقلاً الا اذا كان قوياً بذاته او مشاركاً لقوي... وانه مهما بلغت الفوائد الاقتصادية والفكرية التي نجنيها من كوننا نعيش على طريق، فان وجودنا هذا يشكل، اجتماعياً وسياسياً، خطراً علينا، بل يحتّم علينا ان نعيش في فوران دائم، وكان حياتنا مجازفة أبدية (...).

امثولة التحليل الذي قدمه ميشال شيحا لنا انه لا يهدف الى قولبة الواقع اللبناني في أي من الاطارات النظرية التقليدية. لم يقل لنا ان لبنان أمة، ولا قال انه ليس بألامة... ولا أخاله، لو سئل، الا قائلاً ان لبنان لبنان، وكفى! ما همك بالنسبة الى وجوده الطبقة على هذا الوجود اسماً مدرسياً او صفة مجردة؟!

(...) ان للواقع اللبناني، في مستقبله ان لم يكن في حاضره، حاجات قد تفرض حلولاً لا يمكن ان تستبعد لمجرد ان تاريخ لبنان لم يتعرف الى سابقة لها. ومن هذه الحلول ما قد يفرض علينا الخروج على بعض القواعد التي استخلصها ميشال شيحا قائلاً انها ابداً اسس كل سياسة لبنانية (...).

غسّان تويني

لبنان، في نظري، كان على الأخص، الرؤيا التي تشيلها عنه (بلاداً حرة منظمة هادئة)، والكون، ما كنت استشرف من نوافذه العالية، ومسراتي الأكثر عمقاً كان لها وجهه ووجه ذويه (...).

كان ايمانه بلبنان وليد البصيرة بقدر ما كان وليد المحبة. انه آمن بمصير هذا البلد الصغير لأنه كان يدرك علل وجوده ويعنى بالحفاظ عليها. غير انه اراد، وهو يعدّد حظوظها، ان يتجاهل انه كان واحداً من الرئيسية فيها. لقد كان لنا مدعاة افتخار وكان برهاناً وكان عنوان نبل (...).

شارل حلو

ميشال شيحا من الادباء، الكبار، المدعوين ليكون ادبهم مدرسة بحد ذاتها، يُنتسب اليها، وان كانت لها اصول متعددة النسب.

كل الامائر تبرهن عن ذلك في انتاجه – من الخاطرة اليومية في الجريدة، الى المحاضرة، الى القصيدة (أي غنى زاخر في شعره، تحت اسلوب اصولي! وأية حرارة مطمرة خلال موسيقى محدودة النغم!).

ولكن انتاجه الادبي الخلّق لم يتكامل بناؤه (وجد التصميم وقصّبت الحجارة – وبقي كل شيء على ارضه).

... ولا اتحدث عن "تفكيره" القومي، السياسي، الاجتماعي، الفني – الذي يشكل وحدة كاملة فسيحة يمكن ان تعتبر "مدرسة" – او هي المدرسة التي كنا نتوجه بها، نحن الذين نزلنا المعترك اليومي في الكتابة.

فؤاد حداد

لم يكن ميشال شيحا ذلك الكاتب الذي غنى ذاته بمعزل عن الناس – وان اعتزل الناس – لم يكن ذلك الذي اكتفى بنفسه يحصي اسرارها ومبهماتها. كان لا بد له ان يمر بهذه مروراً، عهد الشباب، عهد ارسل حرارات قلبه على يديه كلاماً شعراً.

كان تلك البصيرة النافذة، شغله كونه والحياة، فاكبّ عليهما يستجلي المعنى، يستلّ منهما الشهادة الصادقة على حبّه وايمانه، حبه للقيم وايمانه بها وبتلك اللامتناهية، تتسارع اليها على مثل بساط ريح.

وكان البطل المشرق في التوفيق بين طرفي نقيض: بين الاديب والعالم، بين الشاعر ورجل الاعمال، بين عناد المنضوي الى مثله ورخاء المتزوي في الابراج!

انضواؤه هو كان جمراً بالحقيقة حيال كل قضية تهمّ، بعيداً او قريباً، شعبه او مصير شعبه، الانسان او مصير الانسان (...).

فؤاد كنعان

كانت الناس تعرف في اول عهد الانتداب ان ميشال شيحا صديق للسلطات ويحبها، ولكن معظم الناس جعلوها بعدها ان سلطات الانتداب خاصمت ذلك الصديق، لأنه كان يعارض كل مشروع يراه مضراً بمصالح قومه وبلاده وكانت معارضته نزيهة ورصينة ومدعومة بالحجج والبراهين. والله يشهد ان ميشال شيحا لم يساير أحداً، ولم يراع أحداً، ساعة كان يعمل في ميدان المصلحة العامة. وهذه البطولة الوطنية ليست مهنة في بلد مثل لبنان (...).

عمر بهيم

تلوح في انفاس شيحا حكمة الامثال، وبساطة الاناجيل، وخلاصة افعال المحبة، الى عقل يتشهى العمق نظيره، وقلب هو الشعر في أصفى حالاته. ذلك زيادة على رهافته اللاتينية، وشجاعته التي حدّها القلق.

فهو، اذن، من الحضارة في الثلاث، اثينة وروما والقدس. فليخشع القارئ في حضرة الانسان، الانسان المفكر، لا ساعة الكتابة وحدها، بل في معظم الساعات، فما فكر شيحا الا عمل، ولا عمل يوماً الا مفكراً، لكان الكلمة بين جنبيه تجربة من تجارب الغمر، او فذة من حقيقة الوجود.

اما سيرة شيحا فسيرة فكره، ولا فصل بينهما، وسيرة فكره هي، في القلب، سيرة لبنان: ما غبر منها وما حضر وما هو آت لا ريبة فيه، حتى ليسوغ القول ان من شيحا ما هو باقٍ بقاء لبنان نفسه، ولبنان باقٍ ما استبقي فيه روح الايمان والمعرفة والحب.

خليل رامز سركيس

صواب ما قال شيحا وما رأى

تكمن اهمية ميشال شيحا في ان ما قال وكتب في النصف الاول من القرن العشرين لا يزال يصلّح في غالب نواحيه لبدايات القرن العادي والعشرين، رغم كثرة التحولات التي حصلت منذ ذاك في لبنان والمنطقة والعالم، وقد يبقى صالحا ما بقي لبنان.

شيحا هو بحق أب "الفكرة اللبنانية" اي الفكر السياسي الذي يعمل لجعل لبنان وطنا نهائيا لجميع ابنائه سيدا على ارضه، حر القرار، ذا حدود معترف بها دوليا، صاحب رسالة حضارية انسانية ثقافية هي في اساس وجوده ودوره.

اما العناصر الثلاثة التي يجب توافرها مجتمعة لبناء الامة وتوفير مقومات استمرارها، فهي في نظر ميشال شيحا التاريخ والجغرافيا، اي العنصران الطبيعيان، وارادة العيش المشترك، اي العنصر البشري الارادي. ولكل من هذه العناصر دوره وضروراته، فارادة العيش المشترك توجب اعتماد ثقافة المحبة والانفتاح على الاخر وتعزيز قيم التوافق والتراضي والتسامح. والجغرافيا تفرض على لبنان الجمع بين المتناقضات والاختلافات، والربط بين اطراف المعمورة، كما تسامم في صنع الشخصية اللبنانية.

والتاريخ يفرض على لبنان احترام التقاليد وقياس المسافة التي تفصل كل حداثة عنها، ومعرفة حقيقة كون لبنان يشكل جزءا من التراث الحضاري للمشرق، والعمل على استخلاص عبر الوحدة والتقارب، واعتبار لبنان ملجأ لكل المضطهدين في الشرق وواحة تلاق لكل الاقليات وطوائف المنطقة، والاعتراف بان لبنان هو بلد الحرية بامتياز، وبانه ضرورة للتفاعل الحضاري واللغوي والتجاري بين الشرق والغرب، وبانه ضرورة لتعايش الاسلامي – المسيحي، واخيرا الاقتناع بان لبنان ليس بلاد ثورات ولا انقلابات بل بلاد التوازنات والتطور السلمي والتوافق والتراضي.

غلاف كتاب هاني صافي عن ميشال شيحا بالفرنسية، والرسم لوهيب بندين.

مع اعترافه بأن الطائفية هي في اساس التركيبة اللبنانية، يرفض شيحا الحفاظ عليها الى ما لا نهاية. فشيحا مقتنع بانه لفترة معينة، وحتى يتغير اللبنانيون في العمق ويتوصلوا جميعا الى قبول وضع انتمائهم الوطني فوق انتماءاتهم الطائفية، يجب ان يستمر النظام الطائفي عندنا.

يؤكد ميشال شيحا ان لبنان ولد من الحرية وللحرية وانه لا يستطيع العيش من دون حرية التعبير والرأي والمعتقد ومن دون حريات سياسية. ولا لا حريات اقتصادية حيث لا حريات سياسية يحض شيحا لبنان على صون الحريات السياسية ليتمكن من الحفاظ على الحرية الاقتصادية وتعزيزها.

يرى ميشال شيحا ان لمجلس النواب اللبناني، الى دوره تمثيل الرأي العام ودوره التشريعي ودوره في مراقبة الحكومة ومحاسبتها، دورا خاصا يقوم به الا وهو ضمان الحقوق والحريات وصونها لان مجلس النواب هو واحة التلاقي والمصالحة، وهو مبعث الامل والطمأنينة لكل الطوائف التي تعيش على هذه الارض. فمجلس النواب في لبنان يشكل اساسا فعليا ليس للنظام فحسب بل للوطن بذاته، ومن دونه تتعدده اخطار الخلاف والانقسام والفوضى الى العنف. لذلك وجب ان تتمثل كل الطوائف نسبيا في مجلس النواب، او ترتد الطائفة التي تفقد تمثيلها الصحيح في المجلس الى الكنيسة او الجامع او الشارع لتسمع صوتها.

لكن ميشال شيحا المنادي بالتمثيل الطائفي النسبي الدقيق للطوائف داخل مجلس النواب لا يستطيع ان يفهم التمثيل الطائفي خارجه، في الادارة وفي باقي مرافق الدولة اللبنانية ومواقعها.

بحكم تركيبته الطائفية والمجموعة الواسعة من الثقافات والاتيتات التي تحيا على ارضه، لبنان في حاجة الى التوازن والاعتدال والسلام. فشيحا يرى انه في غياب التوازن تطغى فئة على اخرى، وفي غياب الاعتدال يتصاعد التطرف، وفي غياب السلام العميق المبني على الطمأنينة تدخل حلقة العنف المفرغة.

بالنسبة الى المدافع الشرس عن الحريات الذي كانه شيحا، لا يمكن وصف نظام سياسي للبنان غير الديموقراطية، لانه يبقى النظام الامثل في الحفاظ على الحريات والتمثيل للمواطنين. لكن ينبغي اختيار ديموقراطية تتماشى مع خصوصيات لبنان وتعددية مجتمعه، مما حدا بشيحا الى اعتماد الديموقراطية التوافقية، لان الديموقراطية العددية سوف تسمح لاكثرية طائفية معينة بان تطغى على الاقليات الطائفية الاخرى وذلك ما لا تقبله طبيعة الاشياء في لبنان.

اما الاخطار التي تتهدد لبنان فهي، في نظر شيحا، المادية، الطغيان، الحكم الفردي، الاقطاعية، غياب الاحزاب السياسية، والديماغوجية. اذ لو استبدت هذه الحالات والانظمة بلبنان فستبدل وجهه الى الابد وسيخسر معها رسالته ودوره.

يؤكد شيحا ان الحكومة الجيدة ضرورة لكل وطن وخاصة للبنان. والحكومة الجيدة هي التي تتألف من رجالات نظيفي الكف، يتمتعون باخلاق عالية، عارفين بأمور السياسة والحكم، مثقفين، اذكياء، وطنيين، ومندفعين للعمل الوطني. ذلك ان حكومة مكونة من وزراء كهؤلاء يسعها ارشاد وحماية ورفع مستوى شعب متحرك، ذكي وعاشق للحرية.

وميشال شيحا المؤمن بالمساواة التامة بين المرأة والرجل، دعا المرأة الى الدخول في معترك الحياة العامة لاخذ موقعها الطبيعي بين الرجال، ولا سيما ان الطبيعة خصت المرأة بحس انساني رهيف جعلها قادرة على إحلال العدالة والحرية والمحبة والفرح والسلام مكان الظلم والبغض والخوف والبؤس والعنف والحقد.

اما التربية في نظر شيحا فلا تكتسب في المدرسة والبيت فقط بل هي عملية تستمر طوال حياة الانسان وتشترك فيها اطراف عدة اخرى كالصحافة والدولة والمجتمع وكل مؤسساته الوسيطة. ويعتبر شيحا انه ليس على التربية ان تعطي الانسان ذخيرة علمية وادبية وثقافية فحسب، بل عليها خاصة ان تسامم في صنع طبعه وارادته ورسم معالم شخصيته ليصير قادرا على لعب دوره الكامل كمواطن يميز بين الصالح والطالح ويساهم في نهضة وطنه وشعبه.

وللاقتصاد في مفهوم شيحا دور اساسي في خدمة المجتمع والسياسة وهو دور الحفاظ على الارض الوطنية ودور الالتزام بحفل الروح وصون الحريات والاخلاق وعدم معارضة التقاليد وحقيقة الاشياء وواقعها، لان اقتصادا فائق التسييس لا يفتش إلا عن الازدهار المادي، بمعزل عن الاخلاق والروحانيات والحريات، هو اقتصاد يهلك الانسان بدلا من ان ينقذه.

اما رسالة لبنان في مفهوم شيحا فتكمن في لعب دور وتحقيق مثل. فرسالة لبنان ان يلعب دور صلة الوصل بين الشرق والغرب على المستوى الفكري والثقافي صونا للارث الحضاري والثقافي الانساني وتطويرا لملفة العربية وافادة للعرب من خبرات الغرب العلمية والتقنية والفنية وافادة للغرب من حضارة العرب وثقافتهم وتجاربهم. ورسالة لبنان ايضا ان يكون المثل في ثقافة المحبة والانفتاح على الآخر وقبوله، وفي التعايش بين الاديان السماوية، وفي بث ثقافة الديموقراطية والحريات في هذا الجزء من العالم، وفي تعزيز قيم التسامح والحوار والغفران، وفي تقريب المسافات بين كل المتناقضات والاختلافات الحضارية والثقافية والروحية والدينية والعرقية واللغوية.

يبقى ان نشير الى ان ميشال شيحا كان سباقا في التنبيه الى خطر الصهيونية على لبنان والعرب عامة. فقد كتب الكثير وقال الكثير في الكيان الصهيوني وخطر دولة اسرائيل على العرب ولبنان من النواحي العسكرية والسياسية والاقتصادية والتجارية والثقافية والتربوية والدينية. كما تنبه باكرا جدا الى الدور الذي ستلعبه اسرائيل في شرذمة العرب وتفكيكهم بغية السيطرة عليهم وجعلهم يدورون في فلك مصالحها وجعلهم اتباعا لها على كل المستويات. وشدد كثيرا على كون اسرائيل ترفض نماذج التعايش وقيم المشاركة والتسامح في الشرق عامة وفي لبنان خاصة، وعلى ارادتها في ضرب هذه النماذج لتعارضها مع نهجها العنصري المنغلق.

وتؤكد السنون ان ميشال شيحا كان ثاقب النظر ورؤيوياً في كل ما كتب وقال إن على مستوى الخصوصيات اللبنانية او الاخطار التي لو استبدت بلبنان لانحرف عن دورة ورسالته، على مستوى الدولة العبرية ونياتها واخطار سياساتها العنصرية والتسلطية.

كما تزيدنا الحوادث والوقائع تأكيدا ان ميشال شيحا هو أحد اعظم رجالات الفكر والسياسة الذين عرفتهم بلادنا في القرن الماضي.

هاني صافي